

الرؤية الشعرية فى « نخلة القلب » ديوان للشاعر على الشرقاوى

يمثل ديوان « نخلة القلب » للشاعر البحرى على الشرقاوى ملمحا واضحا للشعر العربى الحديث فى أدب الخليج العربى حيث تعبر قصائده عن رؤية شعرية تنتمى إلى آفاق السبعينيات كما تنتمى إلى التطور الذى لحق القصيدة العربية بعد جيلين من شعراء المدرسة الحديثة وأبرز ما يمثل هذه الرؤية التركيز على البعد الداخلى فى التجربة الشعرية، حيث نرى الشاعر يبتعد عن الحديث عن القضايا الكبرى وعن النبذة الجهيرة وعن الموضوع القومى أو الاجتماعى ليركز على هذا العالم المتدفق حيث تمتزج الذكريات العميقة بالطبيعة بالإشارات الثقافية ويخفت الحدث داخل القصيدة فلا نلاحظ إلا هذا التداعى الخلاب لصور تجمع بين ما هو حسى مفرط الحسية وبين ما هو معنوى أو ميتافيزيقى. إن القصيدة الحديثة تتحول إلى عنقايد من الصور المجنحة ولكنها تكشف فى الوقت نفسه عن جانب من هذا العالم المتوتر المفعم بالمعاناة والقلق والاستشراف للمستقبل. ومن هنا تبتعد القصيدة عن مفهوم التجربة كما عرفها شعراء الخمسينيات والستينيات بمعنى أن مفهوم التجربة لدى الأجيال السابقة كان أقرب إلى مفهوم الأغراض الشعرية فى القصيدة الكلاسيكية، وكأن الشاعر الحديث إنما يواصل رسالة الشاعر القديم بأسلوب معاصر. بالطبع هناك اختلاف

جذرى بين الرؤية الشعرية الحديثة والرؤية الشعرية التقليدية. الشاعر الحديث كان ينظر إلى نفسه خلال عقدى الخمسينيات والستينيات باعتباره صاحب رسالة وأنه مسئول عن التعبير عن الوجدان القومى فى شعره وهذا ما جعل شعره أقرب إلى القراء بل وجعل قاعدته الجماهيرية تزداد اتساعا وارتباطا به. أما الملمح الثانى فى الرؤية الشعرية فى ديوان «نخلة القلب» للشاعر على الشرقاوى، فهو النزوع العميق نحو الذاتية وهو أيضا نزوع يعبر عن اتجاه أساسى فى شعر السبعينيات حيث غلبت الفردية على الجماعية وحاول الشاعر أن يعبر عن حالة شبه وجودية تأكدت فى هذا الشعر الذى يجعل من القطيعة وسيلة للتواصل مع العالم وهى مفارقة تبدو غير مقبولة وكثير من الشعراء أفضى بهم نزوعهم إلى الذاتية والتركيز على الرؤية الداخلية إلى نوع من الغموض المطلق لأن الهواجس الفردية كانت تبحث عن شكل ملائم لم يلبث أن اتخذ شكل التداعى الحر مما جعل معظم هؤلاء الشعراء أقرب إلى المنعطف السريالى فى الشعر العربى. ولكن على الشرقاوى يبدو من هؤلاء الشعراء القلائل الذين نجحوا فى الوصول إلى بنية شعرية تختلف عن البنية الشعرية السابقة، وفى الوقت نفسه تجنبت هذه السريالية التى أطاحت بنفوذ الشاعر لدى قرائه ومن الطبيعى أن يكون الحب هو محور تجربته الشعرية وهو يترك وحيه حرا من الالتزامات القديمة الكلاسيكية. إن ذاتيته تصب وحدها فى هذه الرؤية التى تعبر عن وعى دفين بالعناصر الشعرية الجديدة وهو وعى يؤكد أن شاعرنا يحاول الإبقاء على التواصل الخلاق مع العالم، ولهذا فالديوان يقيم جسرا نحىلا من الأحلام التى

تستشرف غدا أفضل وأجمل. وإذا كان شعراء السبعينيات لا يهتمون بالبناء المحكم الذى يتهاوى أمام التداعى الحر للصور فإن مهاراتهم الحقيقية تتجلى فى هذه الصور التى تعتمد عليها القصيدة الحديثة فى التأثير. ولهذا فإن على الشرقاوى صانع ماهر حيث يصوغ صورته الشعرية من صميم الإحساس العميق بالطبيعة دون أن يهتم كثيرا بتنمية الحدث الشعرى داخل القصيدة يقول فى قصيدته «مطر»:

ربما أنت لا تذكرين

ربما تذكرين

حين سرنا معا فى صدى الليل

كان المطر

أزرقا مثل طعم المساء

هابطا

فى دمي وفؤداى الشجر

قلت: أين ستأخذنى

قلت: نترك أقدامنا

لجموح المشاعر تصهل فوق البراكين

حلو رقيقة روى الطريق الذى

لا يقود سوى للهوى

مشينا.

أصابعك فى يدي

مثلما النار. كان المطر

يتساقط دفئا على خصلات الطريق الصديق

يدثرنا
مثل أطفاله الخارجين إلى البرد
صادفت وحدى حريقا
وأنت يدي
يرتدينا المطر
ويكوكبنا فى الغيوم نجوما ترى حلمها فى النهر

إن الصور البديعة فى هذه القصيدة توحى بأن الشاعر لا يريد أن يقدم لنا تجربة بل «حالة شعرية» يلعب فيها المطر دور المعادل المفسر لإحساسه بهذا الحب الذى يبدو كأنه بلا هدف، وتركيز الشاعر على عناصر التفسير - المطر - الحريق - الشجر - صدى الليل يؤكد أنه لا يسعى إلى تجسيد التجربة بل يسعى إلى تأكيد لون من الرومانسية الجديدة يعتمد على مجرد البوح تماما كالرومانسية القديمة ولكن الخلاف إنما هو النسج الشعرى للصور التى اتسعت فيها الاستعارة لتشمل القصيدة كلها. فهل نحن أمام نوع جديد من الرومانسية؟ لا أتعجل الحكم وإن كنت أعتقد أن الأدب العربى والشعر فى المقدمة لم يتخلص من المرحلة الرومانسية إلا فى جوانب محدودة وقصيدة «صورة الغيم»، هى نوع جديد من القصيدة - الحلم - أو القصيدة التداعى أو القصيدة - الحالة وليست القصيدة التجربة لأن البناء ينتفى. لم نعد فى عصر الدراما بل مرة أخرى عبرنا إلى عصر الغناء ولكنه غناء مختلف غناء جريح وغير بعيد عن الدرامية فى الوقت نفسه يقول على الشرقاوى:

في المساء
حيث لا شيء بين الزوايا
وحيث تقوم المرايا الصبية
نصحو
نفسر ما ليس يأتي
وندخل في قاعة الوقت
نكسر بالضحكات الندية صمت الجليد
نخاصر آيار بين شرار النشيد
في المساء
حين يغفو الرفاق
وتسكن أحلامهم حلمة النوم
أو صحوة الغيم
هذا الرحيل
الطويل المراق
أظل وحيدا
أسافر في لون جرحى الشقى
أغامر كالطير في الزيد النقى
وأخرج من رثتى
أتنفس بدء الزمان

وتلعب الطبيعة دورا أساسيا في ديوان «نخلة القلب» وحتى استعارة
النخلة للقلب يبدو مثيرا لأن العلاقة بينهما غير واضحة إلا إذا رأى في
النخلة ثباتا وسموفا وإثمارا يريد أن يمنحها للقلب أو للحب وليسست

النخلة إلا مدخلا لعالم يفيض بكثافة نابضة بالألوان والأصوات والحركة
يقول فى قصيدة «حضور» :

تجيبين من آخر الليل فى شكل عصفورة
يصطفىها الصباح
تحط على كنفى
فاخضر كالبرق بين الرياح
وتحمر كالوعد قبل النضوج
تفاتحنى بالخروج من الهم
للحلم تفتح جوع الحوار
فيأتى من الظلمات الوسيعة ضحك المنار

إن هذا الديوان شهادة واضحة على شاعرية مرهفة قادرة على صياغة
صوتها الشعري المتميز وهو أيضا يكشف عن جانب من الرؤية الشعرية
التي تحاول أن تعبر فى أصالة عن مواجع جيل جديد يحلم بالتجاوز
فى إطار من التميز الأصيل..

